الرقة والجزالة

لقد ضل من ظن ان جزل القول خير من رقيقه وان الرقة هي بنت الركة فالرقة عند (سدرة المنتهى) والركة في تخوم الارض السفلى . وهذه الاقوال العربية في الجاهلية والاسلام قد افترقت مناحي اهلها في تينك الفضيلتين الجزالة والرقة فمنهم من نادته نحيزته للاولى فلباها . ومنهم من دعته سجيته الى الثانية فأتاها . والقبيلان ساحران فيما يقولان . وان (حبيباً) القائل :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غدِ ... وعاد قتاداً عندها كل مرتدِ
وانقذها من غمرة الموت انه ... صدود فراق لا صدود تعمدِ
فاجرى لها الاشفاق دمعا مورداً ... من الدم يجري فوق خد مورّدِ
هي الشمس يغنيها تودد وجهها ... الى كل من لاقت وان لم تودد
ولكنني لم احوِ وفراً مجمّعاً ... ففزتُ به الا بشمل مبددِ
ولم تعطني الايام نوماً مسكّنا ... الذ به الا بنوم مشردِ
وطول مقام المرء في الحي مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجددِ
فاني رأيت الشمس زيدت محبة ... الى الناس اذ ليست عليهم بسرمدِ (١)
وليس يجلّي الكرب ريح مسدد ... اذا هو لم يؤنس برأي مسددِ

ان هذا (الحبيب) وان أغرمنا به الاّ انه لن يسلينا عن (الوليد) العزيز المودود الذي يقول :

اخفي هوى لك في الضلوع واظهرُ ... وألام من كمد عليك وأعذَرُ
واراك خنت على النوى من لم يخن ... عهد الهوى وهجرت من لا يهجرُ
وطلبتُ منك مودة لم أعطها ... ان المعنّى طالب لا يظفرُ
هل دين عَلوة يستطاع فيُقتضى ... او ظلم علوة يستفيق فيُقصرُ

(١) جاء في الأغاني : « قال عمارة بن أعقيل : لله دره لقد تقدم في هذا المعنى من سبقه على كثرة القول فيه حتى لقد حبب الاغتراب الي ولئن كان الشعر بجودة اللفظ وحسن المعاني واطراد المرادُ واتساق الكلام فهذا اشعر الناس »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اني وان جانبت بعض بطالتي وتوهم الواشون اني مُقصِرُ
ليشوقني سحر العيون المجتلى ويروقني ورد الخدود الاحمرُ (١)

وابو تمام والبحتري في الشعراء المحدَثين امامان كبيران وكل قد استتبعه من الكلام اسلوب فاتبعه والبلاغة والفصاحة والديباجة العربية كل ذلك فائد الشاعرين . وهادي الطائيين اللذين « اخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد » كما روى احد الأئمة . وقد نعت صاحب (المثل السائر) هذين النابغين فقال : « اعلم ان الالفاظ تجري من السمع مجرى الاشخاص من البشر فالالفاظ الجزلة تُتخيّل في السمع كاشخاص عليها مهابة ووقار والالفاظ الرقيقة تُتخيّل كاشخاص ذوي دماثة ولين اخلاق ولطافة مزاج . ولهذا ترى الفاظ ابي تمام كانها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد وترى الفاظ البحتري كانها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين باصناف الحلي » واوجز الرضي في نعت ابي تمام وابي عبادة وابي الطيب فقال : « ابو تمام خطيب منبر . والبحتري واصف جؤذَر . والمتنبي قائد عسكر » وهؤلاء الثلاثة في رأي (ابن الاثير) « لات الشعر وعزاه ومناته . الذين ظهرت على ايديهم حسناته ومستحسناته »

وما اختلف الطائيان الاكبر والاصغر في الطريقة . الا لاختلاف الخليقة . فمن تشددت خليقته . استقاد للجزالة ومتُنت عبارتُه . ومن سجحت ضريبته . رقت كلمته . وللبلد والاقليم اثر كبير في هذه الخلائق . قال الامام الجاحظ : « قد رأينا اختلاف صور الحيوان على قدر اختلاف طبائع الاماكن وعلى قدر ذلك شاهدنا اللغات والاخلاق والشهوات » وقال الامام الزمخشري : « الارض مختلفة الرقاع . متفاوتة البقاع . ولذلك اختلف شجرها ونباتها وتفاوت بنوها وبناتها » وكأيّ من فتى هوي الرقة فلم تنله وصالا . وكائن من امرىء كلف بالجزالة فلم يؤنس الا صدودا

---

(١) قال ابن خلكان بعد ان اورد طائفة من مديح هذه القصيدة . « هذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة والسهل الممتنع فلله دره ما اساس قياده واعذب الفاظه واحسن سبكه والطف مقاصده »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال ابو العباس في (كامله) : « حدّث ان الفرزدق قدم المدينة فنزل على الاحوص . فقال له الاحوص الا اسمعك غنا من غناء القرى فأتاه بمغن فكان مما غناه :

أتنسى اذ تودعنا سليمى بفرع بَشامة سُقِي البشامُ
ولو وجد الحمام كما وجدنا بسُلمانين لا كان الحمامُ

فقال الفرزدق لمن هذا فقيل لجرير ثم غناه :

امرى لخالدة الخيال ولا أرى شيئاً ألذ من الخيال الطارقِ
ان البلية من تملّ حديثه فانقع فؤادك من حديث الوامقِ

فقال لمن هذا فقيل لجرير ثم غناه :

ان الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا
غيّضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فقال لمن هذا فقالوا لجرير فقال الفرزدق : ما احوجه مع عفافه الى خشونة شعري واحوجني ... الى رقة شعره (١) وهمّام بن غالب هو القائل في ملحمته :

لنا العزة القعساء والعدد الذي عليه اذا عُدّ الحصى يتخلّفُ
ومنا الذي لا ينطق الناس عنده ولكن هو المستاذَن المتنصّفُ
تراهم قعودا حوله وعيونهم مكسرة ابصارها ما تصرّفُ
وبنيان بيت الله نحن ولاته وبيت بأعلى ايلياء مشرّفُ
ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وان نحن اومأنا الى الناس وقفوا
وما حُلّ من جهل حبى حلمائنا ولا قائل المعروف فينا يعنّفُ (٢)
وما قام منا قائم في ندىّ نا فينطق الا بالتي هي اعرَفُ

---

(١) قال الجاحظ في البيان والتبيين : « كان الفرزدق زير غوانٍ وهو مع ذلك ليس له بيت واحد في النسيب مذكور وجرير لم يعشق امرأة قط وهو مع ذلك اغزل الناس شعراً » (٢) قال الشنتمري شارح ابيات (الكتاب) : « يقول حلماؤنا وقر في مجالسهم لا يجلون حباهم خفةً وجهلا على من جهل عليهم ومن امر بالمعروف في حمالة او صلح اتبع وانقيد له ولم يعنف على ما حكم به وضمنه عن قومه »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا عزّ الا عزنا قاهر له وبسألنا النصف الذليل فننصفُ

والناس مختلفون « والناس اخياف » كما يقول المثل العربي فمنهم وعر العريكة ومنهم دمث الخلق . ومنهم من يهلهل ومنهم الذي لا يعرّج الاّ على الجزالة «ولبست الرقة (كما قال صاحب العمدة) ان يكون الكلام رقيقا سفسافا ولا باردا غثا كما ليست الجزالة والفصاحة ان يكون حوشيا خشنا ولا اعرابيا جافيا وإنكن حال بين حالين » والامر كله عائد الى الطبائع كما ذكرت من قبل وقد قالت الافرنج :«الانشاء هو الانسان »

احد اعضاء المجمع العلمي العربي

القدس الشريف اسعاف النشاشيبي